

## الفصل الرابع :

### شواهد التاريخ

لم تكن المبادئ والنظريات والقوانين والشعارات التي تنادي بالتسامح والرحمة والعدل وكل المعاني السامية والمثل العالية كافية وحدها في يوم من الأيام لإثبات صدقها وتحقيق أهدافها ما لم تكن مُصدَّقة بعمل ومؤيَّدة بسلوك ، فما أسهل الادعاء والتقول ، وما أيسر التلون والتحول ، ولكنه من الغباء بمكان أن يظن أولئك المتحولون أن ذلك كاف لإقناع العوام والدهماء فضلاً عن المثقفين والأذكياء ، إنه ليكاد أن يكون مستحيلاً إقناع طفل صغير برحمتك وأنت تمارس التعذيب والاضطهاد ضده، إن حقيقة الواقع هي النور الذي يكشف ظلام الزيف والدجل مهما تخفى بجمال ثوب أو ملحون قول.

من هنا كانت عظمة الإسلام ، هذه العظمة التي لم تكن لو كان الإسلام مجرد أوامر ونواه لا أثر لها ولا تطبيق ، لقد تسلل الإسلام إلى قلوب الناس بلا استئذان وبلغ ما بلغ الليل والنهار لأنه تجسد صوراً حية من خلال معتنقيه ، ولندع التاريخ يقدم لنا بعضاً من صور التسامح وحسن التعامل الإسلامي مع الآخرين.

#### الحرية الدينية :

لقد أعطى الإسلام الحق لكل إنسان أن يعتقد ما يشاء وأن يمارس عبادته دون قيد أو إكراه ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢٥٦] فلا عبرة عند الله لإيمان اللسان مع تكذيب القلب ، ذلك إيمان المنافقين الذين اعتبرهم القرآن أعظم جرماً وأشد كفرة ممن أعلن كفره بالإسلام وتكذبه له بالرغم من أنهم كانوا يمارسون

شعائر الإسلام الظاهرية ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء ١٤٢] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء ١٤٥] ولو أن الله تعالى أراد الإيثار بالجبر والإكراه لخلق الناس جميعاً وفق ما يريد **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** [يونس ٩٩].

ولكنه تعالى ترك الناس وحريرتهم واختيارهم عندئذ يكون للإيمان قيمة ومعنى ثم يكون الجزاء المترتب على حرية الإرادة والاختيار ، فمسلوب الإرادة والمكره معفو عنه غير مؤاخذ بها أُجبر عليه ، فالؤمن الصادق لا يخرج من إيمانه كفر اضطر إليه تحت التعذيب والإكراه طالما أن قلبه باق على الإيمان لم يتحول **﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ فَضَلَّتْ رِيبُ اللَّهِ﴾** [النحل ١٠٦].

فلا يملك أحد دون الله أن يفرس الإيمان في القلوب **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [القصص ٥٦] ولا أن يشبهه في القلب **﴿رَبِّمَا لَا تُفِخُ قُلُوبَنَا بَدَافَةَ هَدْيَتِنَا﴾** [آل عمران ٨] ولذا لما أكره عمار بن ياسر على أن ينال من الرسول الكريم ﷺ فسبه تحت التعذيب وجاء إلى النبي ﷺ مستفسراً : ما تركوني حتى نلت منك ؟ فقال له الرسول ﷺ : « فما بال قلبك يا عمار؟ قال : مطمئن يا رسول الله فقال له : « إن عادوك فعد » فنزلت الآية **﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ﴾** . إن رحم الإيمان ومحضه ومسكنه هو القلب يسري في ذرات النفس يجول مع الدماء يسري في الجسد سريان الروح ، عرّفه علماء العقيدة فقالوا : هو تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان ، أبعد هذه يجرو من يدعي أن الإسلام انتشر بالسيف ، إن هذا لهو عين الحيف ، كيف يسوغ هذا القول على أحد وتلك آيات القرآن تُتلى ويرردها الجميع بما فيهم صغار المسلمين **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** [يونس ٩٩] **﴿إِنَّ هَذِهِ تَدْسُورَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ بِكِ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾** [الزمل ١٩] **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾** [الكهف ٢٩] **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢﴾** [الغاشية ٢١ ، ٢٢] **﴿قُلْ كُلٌّ يَتَمَلَّ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾** [الإسراء ٨٤] **﴿وَلَا يَرْأُونَ تَحْيِيلِينَ﴾** [هود ١١٨].

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني : « لم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من خلفائه أنه أجبر أحداً من أهل الذمة على الإسلام... وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً »<sup>(١)</sup> وبمثله قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة : « وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم ، لم يثبت له حكم الإسلام حتى يُوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً »<sup>(٢)</sup>

وقد سمح الخليفة الظاهر للمجبرين على الإسلام زمن الحاكم الظالم والمستبد الغالي الحاكم بأمر الله سمح لهم الظاهر بالعودة لدينهم ، فرجع الكثيرون منهم سنة ٤١٨ هجرية<sup>(٣)</sup>

وعندما أُجبر موسى بن ميمون على التظاهر بالإسلام فر إلى مصر ، وعاد إلى دينه ولم يعتبره القاضي عبد الجبار البيهقي مرتدّاً بل قال : « رجل يكره على الإسلام ، لا يصح إسلامه شرعاً » وعلق على ذلك الدكتور ترتون بقوله : « وهذه عبارة تنطوي على التسامح الجميل »<sup>(٤)</sup>

### حرية ممارسة العبادة :

وإذا نظرنا إلى أحوال غير المسلمين في ظل حكم المسلمين نجد أنهم تمتعوا بكامل حريتهم الدينية ومارسوها وفق شرائعهم تحت حماية المسلمين بل وجدوا في المسلمين رحمة ورأفة لم يجدوها من أهل دينهم المحتلين لبلادهم كما هو الحال في مصر وفي بلاد الشام تلك البلاد التي كانت تحت حكم الرومان ومارس الرومان عليهم عذاباً واضطهاداً دينياً وإرهاقاً مالياً وعذاباً جسدياً كان الموت هو غاية الأمان للمعذنين ، وما رفع هذا الظلم عنهم ورد لهم كرامتهم سوى المسلمين.

١- السير الكبير - ج ١٠ / ص ١٠٣ .

٢- المغني - ابن قدامة ج ٩ / ص ٢٩ .

٣- أهل الذمة في الإسلام - ترتون ص ٢١٤ .

٤- المصدر السابق - ص ٢١٤ .

ولنترك التاريخ يحدثنا عن سماحة الإسلام في الحريات الدينية :

### الرسول ﷺ وأهل مكة :

على الرغم من كل ما عاناه النبي ﷺ من أهل مكة حيث التكذيب والإيذاء النفسي والجسدي حتى قتلوا المستضعفين من أتباعه تحت التعذيب وحاصروه والمؤمنين ثلاث سنوات في شُعب أبي طالب ومنعواهم الطعام حتى مات الكثير منهم وخاصة الضعفة من الأطفال والكهول والعجائز ، وعلى الرغم مما قاساه وعاناه فقد قابل الإساءة بالإحسان والغدر بالوفا وقابل بالبر الجفا ، فحلم وصبر وعفا وغفر عفو المتمكن القادر لا المستكين الخائر.

روى الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة : « أن النبي ﷺ بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم على الرغم مما قاساه وعاناه هو وأصحابه » أطلق أسراهم جميعاً بلا مال أو فدية.

### فتح مكة :

لا لوم أو تثريب على قائد ظفر بأعدائه الذين قاتلوه ظلماً واعتدوا عليه في نفسه وفي جسده وفي أهله وأصحابه ودينه وعقيدته وما تركوا من سبيل للنيل منه إلا وسلكوها وما من أحد يمد لهم يد العون في إيذائه إلا وسعوا إليه وهم على ذلك حتى انجلت المعركة بينه وبينهم بتمكُّنه منهم ووقوعهم جميعاً في قبضته وتحت سلطانه وقدرته ، مَنْ ذا الذي يعيبه في ذلك؟ أليس القصاص عدلاً؟ والأسير مغنماً ورد الاعتداء حقاً؟ بلى كل ذلك عدل ، ولكن النبي ﷺ عاملهم بالإحسان والفضل فذلك كان شأنه كله مع أحبائه وأعدائه فعلى الرغم مما عاناه وقاساه هو وأصحابه من قريش قبل الهجرة وبعدها فإنه لما دخل مكة فاتحاً منتصراً ووقفوا جميعاً حول الكعبة وقد أحاط بهم عشرة آلاف مقاتل من المسلمين خاطبهم قائلاً : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

لقد أعطى النبي ﷺ أعظم مثال في التسامح الديني فقد كتب النبي ﷺ لأهل نجران أماناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله يقول ابن سعد « وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم : أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، من يبيعهم وصلواتهم ورهبانهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته »<sup>(١)</sup> وعلى هذا الهدي النبوي العظيم في التعايش الكريم والتسامح العظيم سار خلفاؤه من بعده .

وهذه أمثلة لصور التسامح عند الصحابة رضي الله عنهم :

ما رواه الإمام الترمذي في السنن عن مجاهد أن عبد الله بن عمرو دُبِحَتْ لَهُ شاةٌ فِي أَهْلِهِ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ : أَهْدَيْتُمْ لِنَجْرَانَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِنَجْرَانَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا زَالَ جَبْرِيْلُ يُوصِيْنِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ » .

وحين مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشيخ من أهل الذمة يقف على الأبواب يسأل الناس قال : ما أنصفناك أن كنا أخذنا المال في شيبتك وضيعناك في شيبك . ثم أجرى عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه .

وحين اشتكت إليه امرأة قبطية من عمرو بن العاص الذي ضم بيتها إلى المسجد أرسل إليه عمرو وسأله عن ذلك فقال : إن المسجد ضاق بالمسلمين ولم أجد بداً من ضم البيوت المحيطة بالمسجد وعرضت على هذه المرأة ثمناً باهظاً فأبت أن تأخذه فادخرته لها في بيت المال وانتزعت ملكيتها مراعاة للمصلحة العامة ، لكن الفاروق عمر أمره بأن يهدم هذا الجزء الذي للمسجد ويعيد بناءه كما كان لصاحبه .

وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يصلح أهل الحيرة ويكتب في كتاب الصلح «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين » .

١- الطبقات الكبرى - ابن سعد (ج ١ / ص ٢٦٦) ، كتاب الأموال لابن زنجويه (ج ٢ / ص ٤٤٩) .

ومن الصفحات المضيئة في تاريخنا الإسلامي ما ورد أن الصحابة لما دخلوا حصص وفرضوا على أهلها الجزية فجاءهم أمر من أبي عبيدة بن الجراح بمغادرة حصص للانضمام إلى جيش المسلمين حيث مواجهة الروم في اليرموك أعادوا إلى أهل حصص ما أخذوه ، وقالوا : إنا أخذناه في مقابل الدفاع عنكم أما وقد خرجنا فقد أصبحنا غير قادرين على حمايتكم فلزم رد ما أخذناه منكم ، فعجب لذلك أهل حصص أشد العجب وتمنوا لهم النصر على عدوهم .

وهذا عهد عمر بن الخطاب المكتوب لأهل القدس وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أن لا تُسكن مساكنهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .... وعلى ما في هذا الكتاب ذمة الله ورسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » وبمثلته كتب - رضي الله عنه - لأهل اللد<sup>(١)</sup>

ومن حرص عمر رضي الله عنه على حماية غير المسلمين وصيانتهم من بعده وعدم نقض عهده معهم لم يصل في كنيسة القيامة حين أتاها وجلس في صحنها ، فلما حان وقت الصلاة قال للبتريك : أريد الصلاة ، فقال له البتريك : صل موضعك فامتنع عمر رضي الله عنه وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً ، فلما قضى صلاته قال للبتريك : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي ، وقالوا هنا صلى عمر » وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ، ولا يؤذن عليها ، ثم قال للبتريك : أربي موضعاً أبني فيه مسجداً . فقال : على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب ، ووجد عليها دماً كثيراً فشرع في إزالته<sup>(٢)</sup> . وبمثل ما كتب عمر رضي الله عنه عياض بن غنم رضي الله عنه لأهل الرقة ولأسقف الرها<sup>(٣)</sup>

١- تاريخ الطبري - ج ٤ / ص ٤٤٩ .

٢- تاريخ ابن خلدون - ج ٢ / ص ٢٦٦ .

٣- فتوح البلدان - ص ٢٣٩ .

وحين فتح خالد بن الوليد- رضي الله عنه- دمشق كتب لأهلها « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدمن ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله والخلفاء والمؤمنين »<sup>(١)</sup> هم في ممارسة شعائرهم وإظهارها : « ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار ، إلا في أوقات الصلاة، وأن يُخرجوا الصليبان في أيام عيدهم »<sup>(٢)</sup>

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لعماله : « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار »<sup>(٣)</sup> ولما أخل بعض الحكام بهذه الشروط والعهود اعتبر المسلمون ذلك ظلماً وأمر أئمة العدل بإزالته ، ومن ذلك أن الوليد بن عبد الملك أخذ كنيسة يوحنا من النصارى قهراً وغصباً وأدخلها في المسجد فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكاً إليه النصارى ذلك فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاد في المسجد عليهم ، فاسترضاهم المسلمون ، وصالحوهم فرضوا<sup>(٤)</sup>

« ولما شكنا النصارى إلى عمر بن عبد العزيز في شأن كنيسة في دمشق كان بعض أمراء بني أمية أقطعها لبني نصر ، فردّها إليهم »<sup>(٥)</sup>

وقد سمّت الشريعة الإسلامية في تسامحها مع غير المسلمين عندما قرر الفقهاء وجوب احترام غير المسلمين في عبادتهم فقرروا تحريم إحضار يهودي في سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعاً من عمل في إجازة لحديث رواه النسائي والترمذي وصححه « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت » .

١- البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٦) ، كتاب الأموال لابن زنجويه (ج ٢ / ص ٤٧٣) .

٢- أبو يوسف في الخراج (ص ١٧٥) .

٣- كتاب الأموال لأبي عبيد (ص ١٣٨) .

٤- أبو عبيد في الأموال (ص ٢٢٣) ، فتوح البلدان (١٧١ - ١٧٢) .

٥- المصدر السابق .

ويمتد أمان الذمي على ماله ، ولو كان خمراً أو خنزيراً ، وينقل الطحاوي إجماع المسلمين على حرية أهل الذمة في أكل الخنازير وشرب الخمر وغيره مما يحل لهم في دينهم يقول : « وأجمعوا على أنه ليس للإمام منع أهل الذمة من شرب الخمر وأكل لحم الخنازير واتخاذ المساكن التي صالحوا عليها إذا كان مضراً ليس فيه أهل إسلام- أي في بلادهم التي هم فيها الكثرة »<sup>(١)</sup>

والمراد هنا إظهار ذلك والمجاهرة به ، إذ إنهم أحرار في بيوتهم على أكل وشرب ما شاءوا .

قال الإمام مالك رحمه الله : « إذا زنى أهل الذمة أو شربوا الخمر فلا يعرض لهم الإمام ، إلا أن يُظهروا ذلك في بلاد المسلمين ويدخلوا عليهم الضرر ، فيمنعهم السلطان من الإضرار بالمسلمين »<sup>(٢)</sup> قال القرافي وهو يُعدُّ صوراً للبر أمر بها المسلمون تجاه أهل الذمة : « ولين القول على سبيل اللطف لهم والرحمة ، لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال إذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم لا خوفاً وتعظيماً والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة نصيحتهم في جميع أمور دينهم وحفظ غيبتهم إذا تعرَّض أحد لأذيتهم....امثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ »<sup>(٣)</sup>

### وصايا الخلفاء والأمراء بأهل الذمة :

أرسل عمر رضي الله عنه كتاباً إلى عامله أبي عبيدة ، فيقول موصياً بأهل الذمة : « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحلها ووفِّ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم »<sup>(٤)</sup>

- 
- ١- اختلاف الفقهاء (ص ٢٣٣) .
  - ٢- التمهيد لابن عبد البر (ج ١٤ / ص ٣٩٢) ، أحكام أهل الذمة (١/ ٣١٧) والمحلي لابن حزم (٩/ ١١٨) .
  - ٣- كتاب الفروق للقرافي - (٣/ ٢١ - ٢٢) .
  - ٤- البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٤٤) .

ولما دنا أجله رضي الله عنه أوصى المسلمين برعاية أهل الذمة فقال : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً وأن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتلوا من ورائهم وألا يكلفوهم فوق طاقتهم . رواه البخاري

وكتب إلى واليه في مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه : « واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان ٧٤] يريد أي من المؤمن أن يقتدى به ، وأن معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم ، وأوصى بالقبط فقال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » قال الألباني رحمه الله تعالى : صحيح على شرط الشيخين السلسلة الصحيحة ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال ﷺ : « من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته ، فأنا خصمه يوم القيامة ، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً ، فإنه من خصمه خصمه » <sup>(١)</sup>

وكان مما أمر به رضي الله عنه « من لم يُطِّق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه » <sup>(٢)</sup> وروى ابن زنجويه بإسناده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى شيخاً كبيراً من أهل الجزية يسأل الناس فقال : « ما أنصفناك إن أكلنا شبيبته ، ثم نأخذ منك الجزية ، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير » <sup>(٣)</sup>

وفي رواية أن عمر أخذ بيده وذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : « انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم » ﴿ إِنَّمَا الصَّنَعَةُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة ٦٠] وهذا من مساكين أهل الكتاب « ووضع عنه الجزية وعن ضربائه » <sup>(٤)</sup>

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عماله على الخراج : « إذا قدمت عليهم فلا تبعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها

١- كثر العمال - المتقي الهندي - (حديث ١٤٣٠٤).

٢- تاريخ دمشق - ابن عساكر - (ج ١ / ص ١٧٨).

٣- الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٠ ، ١٥١).

٤- الخراج لأبي يوسف (ص ١٥٠ ، ١٥١).

ولاتضرين أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج ، فإننا إنما أمرنا الله أن نأخذ منهم العفو فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دوني ، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك » (١)

خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب لنصارى الحيرة : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيّل من بيت مال المسلمين هو وعياله . »

وكتب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز إلى واليه عدي بن أرطاة : « وانظر من ولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه » (٢)

### موقعة الروم :

في موقعة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم عام ١٥ هجرية ، ٦٣٦ ميلادية انضم عرب الشام النصارى الموالين للروم إلى جيش المسلمين وحاربوا معهم ضد الروم ، مع أنهم ليسوا ملة واحدة ، دفعهم إلى ذلك معرفتهم بأخلاق المسلمين ورغبة في التخلص من ظلم الرومان.

### فتح بيت المقدس :

في عام خمس عشرة من الهجرة سار أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من دمشق إلى بيت المقدس وأجابوه إلى الصلح بشرط أن يُقدّم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستشار عمر الناس وأشاروا عليه بالسير إليهم ، وصل الفاروق إلى بلاد الشام وتلقاه أبو عبيدة أمير الجيش ورؤوس الأمراء خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان ، وترجل أبو عبيدة وترجل عمر وأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر فهمّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة فكف عمر ، ثم سار رضي

١- أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٩٤).

٢- أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٩٤).

الله عنه حتى صالح نصارى بيت المقدس ودخلها من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء وصلى تحية المسجد بمحراب داود عليه السلام وصلى صلاة الغداة- الصبح- في الركعة الأولى بسورة ص- وفيها ذكر داود عليه السلام وسجد وسجد الناس وقرأ في الركعة الثانية بسورة بني إسرائيل (الإسراء) .

لك الله يا عمر أيها الفاتح العظيم تقرأ بهاتين السورتين لبيان موقف الإسلام تجاه أنبياء الله إيماناً بهم واحتراماً لهم وتقديراً وحباً ، كأنها رسالة لبداية تاريخ جديد تاريخ العدل والرحمة والإنسانية تاريخ سوف يترك بصمته قوية وواضحة لجميع العالم ، تلك البصمة التي لا يستطيع أحد أن يتجاوزها وهو يقرأ تاريخ أرض فلسطين أرض الوثام والمحبة بين الجميع ، دخل عمر فاتحاً منتصراً قوياً ، دخل عابداً لله معظماً أماكن العبادة فيضرب رضي الله عنه أعظم المثل في التواضع فيقوم بنقل تراب الصخرة في طرف رداءه وقبائه وينقل المسلمون معه ، وقد كانت الروم قد جعلت الصخرة مزبلة لأنها قبله اليهود حتى كانت المرأة ترسل خرقة حيضتها لتلقى فوق الصخرة ، وبينما عمر بالجابية إذا بكردوس من الروم بأيديهم سيوف مسلولة فسار إليهم المسلمون بالسلاح ، فقال عمر إن هؤلاء قوم يستأمنون فسار نحوهم فإذا هم جند من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح حين سمعوا بقدومه ، فأجابهم عمر- رضي الله عنه- إلى ما سألوا وكتب إليهم كتاب أمان ومصالحة .

### فتح بلاد الفرس :

لكم عانى أهل الفرس ظلم حكامهم واستعبادهم لشعوبهم وممارسة التعذيب والاضطهاد وإرهاقهم بالضرائب الباهظة بالإضافة إلى النظام الطبقي الجائر حتى جاء الفتح الإسلامي فرفع المسلمون الظلم عن أفراد شعبها وكفلوا لهم حرية العقيدة ولم يتعرض المسلمون لمعابد نيرانهم وإنما بقيت عدة قرون حتى دخلوا في الإسلام طواعية وأغلقوها بأيديهم .

## القبط في الفتح الإسلامي :

عاش نصارى مصر في عهد الوثنية الرومانية أقسى فترات حياتهم لما تعرضوا له من الاضطهاد والتعذيب والقتل حتى أنه لكثرة القتل سمي بعصر الشهداء حتى هرب رجال الدين إلى الصحراء ، ومنهم البطريق بنيامين الذي اختفى ثلاثة عشر عاماً فقبض على أخيه وعُذّب وحُرِّق ثم أغرق من أجل أن يدل على أخيه ، ولذا رحب النصارى بالفتح الإسلامي الذي أنقذهم من نار حكم جستنيان الذي قتل من قبط الإسكندرية وحدهم مائتي ألف وعندما دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر كتب عهداً بحماية كنائسهم ولعن أي مسلم يخرجهم منها وأعطى أماناً للأبنا بنيامين وردة لكرسيه بعد ثلاثة عشر عاماً من إقصائه عنه واستقبله بحفاوة عظيمة ، واستعاد الإسلام الكنائس المصرية من الاحتلال البيزنطي ولم يجعلها مساجد للمسلمين بل أعادها لنصارى مصر حتى قال أعظم فقهاء مصر الليث بن سعد ت ٧٩١م إن جميع كنائس مصر قد حدثت في ظل دولة الإسلام ، لأن أقباط مصر لم تكن لهم كنائس حتى حررهم الإسلام وظلت الأغلبية على نصرانيتهم قرابة قرنين من الزمان .

## المسلمون وأهل سمرقند :

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وفد عليه وفد من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن القائد قتيبة بن مسلم الباهلي دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمرهم أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ونصب لهم القاضي جميع بن حاضر الناجي فحكم بإخراج المسلمين فأقر أهل سمرقند ببقاء المسلمين بين أظهرهم.<sup>(١)</sup>

١- البلاذري في فتوح البلدان ص ٤١١ .

## الدولة العباسية :

الأمير العباسي إبراهيم ابن الخليفة المهدي وعمه الخليفة المأمون مثل هو وبختيشوع الطيب النصراني بين يدي القاضي أحمد بن أبي داوود فزرى إبراهيم على بختيشوع وأغلظ له فأحفظ ذلك القاضي فقال :

يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك ولا تُشِرْ إليه بيدك وليكن قصدك أمماً - معتدلاً- وطريقك منهجاً- واضحاً- وريحك ساكنة وكلامك معتدلاً ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم ، فقال الأمير : أمرت بسداد وحضت على رشاد ولستُ بعائد إلى ما يلثم مروءتي عندك ويُخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يمحو زلتي ، ولم يتلف مالاً أفاد موعظة.

## الدولة الطولونية :

أحد الرهبان النصارى شكوا إلى الوالي أحمد بن طولون أحد قواده بأنه قد ظلمه وأخذ منه مالاً بغير حق فأحضر الوالي وعزَّره وابنه وأخذ منه المال وردّه للنصراني وفتح الباب لكل متظلم من أهل الذمة .

## موقف ابن تيمية مع أهل الذمة :

لما تغلب التتار على بلاد الشام وذهب ابن تيمية ليكلم قطلوشاه قائد التتار بشأن الأسرى سمح قطلوشاه برد الأسرى المسلمين وأبى أن يطلق نصارى أهل الذمة فقال له ابن تيمية : « لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لأهل الذمة ولا لأهل الملة » .

## التسامح في القضاء :

لم يتدخل المسلمون في الشؤون التفصيلية للأحوال الشخصية والعلاقات الخاصة بغير المسلمين فلم يجبروهم على شريعة الإسلام ولا التقاضي أمام المسلمين إلا إذا تراضوا بينهم على ذلك .

نقل العيني عن الإمام الزهري : « مضت السنة أن يرد أهل الذمة في حقوقهم ومعاملاتهم وموارثهم إلى أهل دينهم ، إلا أن يأتوا راغبين في حكمنا ، فنحكم بينهم بكتاب الله تعالى » <sup>(١)</sup> بل يمضي التسامح واحترام علمائهم وعدم تجاوزهم في القضاء إلى الحد الذي نقل العيني عن ابن القاسم « إن تحاكم أهل الذمة إلى حكام المسلمين ورضي الخصمان به جميعاً ، فلا يحكم بينهما إلا برضا من أسقفهما ، فإن كره ذلك أساقفهم فلا يحكم بينهم ، وكذلك إن رضي الأساقفة ولم يَرْضَ الخصمان أو أحدهما لم يحكم بينهما » <sup>(٢)</sup>

### المسلمون وبلاد الأندلس :

غزا موسى بن نصير بلاد الأندلس الذين عاشوا ظلم حكم النصارى الروم الذي امتد أكثر من مائتي عام بدءاً من سنة ٤٨٤ م مع أنهم كانوا يدينون بالنصرانية إلا أنهم استبدوا بالسلطة ونالوا من الشعب قسماً السكان إلى طائفتين :

الطائفة الأولى : وهم أرقاء المزارع والعييد وكان هؤلاء ملكاً لسادتهم ، وليس له قانون يحميهم من التعذيب أو القتل وتنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الأرض ولم يكن لهم حق الزواج إلا بأمر سادتهم.

الطبقة الثانية : الطبقة المتوسطة وهم الأحرار من سكان المدينة ولم ينج هؤلاء أيضاً من الإذلال والظلم ودفع الضرائب للأشراف لينفقوها على ملذاتهم وأجبروا اليهود على التنصر وخيروهم بين اثنين إما أن ينتصروا أو يُنفوا من البلاد وتصادر أملاكهم فدخل الكثير منهم النصرانية ظاهراً وقبل الفتح الإسلامي بعشر سنين يتفق هؤلاء مع يهود بلاد العرب على القيام بثورة ضد القوط النصارى إلا أن القوط عرفوا بمؤامرتهم عام ٦٩٤ م فسلبوهم أموالهم واتخذوهم أرقاء وربوا

١- عمدة القارى شرح صحيح البخاري - للعيني (ج ١٦ / ص ١٦١).

٢- نفس المصدر السابق .

أبناءهم على النصرانية وأمروا ألا تتزوج اليهودية إلا بنصراني.<sup>(١)</sup> ولما جاء الفتح الإسلامي في بلاد الأندلس تغير الحال.

### الأندلس تحت حكم المسلمين :

من يجهل من المشرق والمغرب أزهى فترة تاريخية تتألق فيها الحضارة البشرية؟ من يجهل من المشرق والمغرب أصفى أيام التسامح التي عاش في ظلها أصحاب الأديان الثلاثة بسلام وتعايش واحترام مما جعل هذه الحقبة هي النموذج الفريد في الدنيا كلها.

ويكفي أن أحيل القارئ إلى المراجع الأندلسية التي أرختْ لهذه الفترة ومنها :

\* كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، تأليف أبي القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (٤٩٤-٥٧٨ م) وهذا الكتاب يقع في ثمانية عشر مجلداً.

\* نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تأليف أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ت ١٠٤١ هجرية ويقع هذا الكتاب في عشر مجلدات .

\* الإحاطة في أخبار غرناطة لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب .

\* الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ٥٤٢ م ويقع في ثمان مجلدات .

### شهادات المؤرخين من غير المسلمين :

إن خير شاهد على التزام المسلمين بهذه المبادئ العظيمة هو شهادات غيرهم ممن عرفوا الإسلام وقرأوا تاريخه .

١- ساحة الإسلام - الدكتور الحوفي .

أحد قواد الخليفة المعتصم أمر بجلد إمام ومؤذن اشتركا في هدم معبد من معابد النار في القرن العاشر الميلادي أي بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون كانت تملأ العراق وكردستان وسجستان وخراسان وأذربيجان ولم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار.

يقول السير توماس أرنولد في كتابه ( انتشار الإسلام ) بعدما ذكر أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين في الدويلات الإسلامية وكذلك أسماء الأطباء المسيحيين المقربين من الخلفاء قال : « إن المسيحيين أحرزوا ثروات ضخمة وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الإسلام الأولى بفضل ما كفل لهم من حرية العقيدة والملك حتى لقد كان منهم أصحاب نفوذ عظيم في قصور الخلفاء » .

### المسيحيون في بلاد الشام :

كتبوا لأبي عبيدة « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » ثم أغلقوا أبواب المدينة في وجه الروم إخوانهم في العقيدة. <sup>(١)</sup>

وعن حرية الاعتقاد وعدم إجبار المسلمين غيرهم على اعتناق الإسلام يقول توماس أرنولد : « لم نسمع عن أي محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قُصد منه استئصال الدين المسيحي » .

المفكر الإسباني بلاسكو أبانيز في كتابه - ظلال الكنيسة - : « لقد أحسنت إسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية ، وأسلمتهم القرى أزمَّتْها بغير مقاومة ولا عداة فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب ، وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وقهر ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير ،

١ - البلاذري - فتوح البلدان - ص ١٨٧ .

وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب ، فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود ، ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته ، فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها ، غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها .

يقول روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكن ، وهو يتكلم عن الإسلام « فلم يكره أحداً عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالأسباب » .

آدم متز : « ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج ، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به » <sup>(١)</sup>

المستشرق الألمانية زيغرد هونكه : « تذكر شهادة بطريرك بيت المقدس حيث كتب رسالة في القرن التاسع لبطريرك القسطنطينية عن العرب يقول فيها : إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف » <sup>(٢)</sup>

ول ديورانت : « لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابثيون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، لقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم » <sup>(٣)</sup>

١- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٩٣/٢ .

٢- شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦٤ .

٣- قصة الحضارة - ول ديورانت ج ١٢ / ص ١٣١ .